

مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي (النشأة والتطور)

أ: عَاد التَّجَانِي / معهد العلوم الإسلامية / جامعة الشهيد حمه لخضر / الوادي

adtedjani1980@gmail.com

الملخص:

إنّ المذهب المالكي من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تحظى بالإجلال والتكريم في بلاد المسلمين شرقا وغربا، فقد انتشر هذا المذهب في الحجاز ومصر والعراق وتونس والأندلس والمغرب الأقصى، وحيث إنّ مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي لها امتداد تاريخي للمدرسة الأولى في المدينة المنورة، تسعى هذه الورقة البحثية إلى التعريف بها من حيث نشأتها وتطورها عبر الحقبة التاريخية التي مرّت بها، وذلك في مبحثين اثنين هما:

المبحث الأول: نشأة المدرسة المالكية في المغرب الأقصى

المبحث الثاني: تطوّر المدرسة المالكية في المغرب الأقصى

الكلمات المفتاحية: المغرب الأقصى، الفقه المالكي، النشأة، التطور.

Abstract :

This doctrine spread in Hijaz, Egypt, Iraq, Tunisia, Andalusia and the Far Maghreb, and where the school of the Far Maghreb in the Maliki jurisprudence has a historical extension of the first school in Medina, seeking these The research paper to introduce them in terms of their origin and development through the historical era that passed through, in two studies:

The first topic: The emergence of the Malik school in Morocco

The second topic: The development of the Maliki school in Morocco.

Keywords: Morocco Farouk, Maliki jurisprudence, development, evolution.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدين، وبعد: فإنّ مذهب إمام دار الهجرة "مالك بن أنس" -رحمه الله- من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تحظى بالإجلال والتكريم في بلاد المسلمين، شرقها، وغربها، وإنّ لإمامها مكانة عند العلماء لا تضاهيها مكانة.

وقد تتلمذ على هذا الإمام الجليل جمع كبير من طلبة العلم من مختلف البلاد، حاملين معهم فقه إمام دار الهجرة، وهكذا انتشر مذهبه: في الحجاز، ومصر، والعراق، وتونس، والأندلس، والمغرب الأقصى.

ويعدّ المذهب المالكي في منطقة المغرب العربي منذ قرون خلت مذهب الدولة الرسمي في كلّ من موريتانيا، المغرب، ليبيا، الجزائر وتونس، ويعدّ واضعه إمام دار الهجرة مالك بن أنس، إمام المسجد الأكبر بالمدينة المنورة في القرن التاسع ميلادي والثاني للهجرة.

تاريخياً تعدّ الحواضر الدينية الكبرى مثل قرطبة، فاس والقيروان أكثر المدن التي اشتهرت بنبوغ فقهاء مالكيين فيها خلال القرون الأولى وبعدها، ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر الأئمة أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد التنوخي وابن أبي زيد القيرواني وابن

عبد البر المالكي وابن رشد وغيرهم من الأسماء التي تركت بصمتها في مجال الفقه والفتوى.

وحيث إنّ مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي تستمد أصولها ومناهجها من مدرسة الإمام مالك بالمدينة المنورة، فإنّ لها أهمية بالغة في نشر المذهب المالكي في المغرب العربي، والمحافظة على ترسيخه في حياة الناس.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في الحديث عن البوادر الأولى لنشوء المدرسة المالكية بالمغرب الأقصى، وعن الظروف التي صاحبت هذه النشأة، ومحاولة ملامسة المراحل الأولى التي ارتقى فيها المذهب وازدهر وبلغ أوجّه، وبيان العوامل المساهمة في هذا الازدهار، والتي من بينها عوامل نابعة من أصول المذهب وقواعده، وأخرى خارجية تمثلت في الجهود الجبارة المبذولة من قبل أهل الغرب الإسلامي علماء وسلاطين.

وللإجابة عن ذلك تمّ تقسيم هذا البحث إلى مبحثين، فالمبحث الأول يتحدّث عن نشأة مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، والمبحث الثاني يتناول الحديث عن تطوّر المدرسة المالكية في المغرب الأقصى.

المبحث الأول: نشأة المدرسة المالكية في المغرب الأقصى

يظهر من خلال ما تشير إليه المصادر والروايات التاريخية أنّ بداية دخول المذهب المالكي للمغرب الأقصى مرتبط بتلك الرحلات والأسفار الحجازية للمغاربة نحو الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وأخذ العلم من أفواه الرجال، حيث توافد المغاربة على الإمام مالك -رحمه الله- بالمدينة المنورة في القرن الثاني للهجرة حيث يقول ابن خلدون: "وأما مالك رحمه الله تعالى فاختصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنّهم لم يقلّدوا غيره إلا في القليل لما أنّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم

فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته.¹

كذلك طبيعة أهل الحجاز التي تشبه طبيعتهم طبيعة أهل المغرب وتغلب عليها البساطة والبعد عن التعقيد، يقول ابن خلدون: "وأيضاً فالبداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداءة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصّاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"².

فتعليل ابن خلدون لغلبة المذهب المالكي على المغرب والأندلس يرجع إلى تشابه البيئة المغربية بالبيئة الحجازية واشتراكهما في كثير من الأمور والخصائص والعادات، كاعتمادهم الفقه العملي أصلاً من الأصول التشريعية كان له الأثر القوي في ترسيخ هذا المذهب وتثبيت دعائمه في بلاد المغرب.

وهذا ما جعل عقلية أهل الحجاز وأهل المغرب تغلب عليها نزعة الحديث، كما كان لإقبال أهل المغرب والأندلس على الأخذ من علوم المدينة وفقه إمام دار الهجرة دور في انتشار المذهب المالكي، وقد فسّر ذلك ابن خلدون بقوله: "أنّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة"³.

فالمذهب المالكي لا يعوّل على استخدام الرأي أو الجدل بقدر ما يعتمد على النص والنقل، وعلى الأثر والرواية، ومن ثم فهو مذهب ملائم لطبيعة المغاربة، لأنه عملي أكثر منه نظري، ويستند على الواقع، ويأخذ بالعرف والعادة، وأهل المغرب عموماً متمسكون بالسنة والجماعة⁴.

وتفيد بعض الروايات التاريخية أنّ المذهب المالكي انتقل إلى المغرب من الأندلس أيام الأدارسة، يقول الناصري في الاستقصا: "والمعروف أنّ مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس ثمّ انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة"⁵.

ويقال أنّ المغاربة قبل اعتناقهم للمذهب المالكي، كانوا يدينون بمذاهب مختلفة، من حنفية، وخارجية، ومعتزلة... وغيرها، كمذهب الأوزاعي مثلاً⁶.

ويروى أنّ سبب سيطرة المذهب المالكي على المغرب يرجع إلى المولى إدريس⁷ الذي دعا الناس للأخذ به، واتباع منهجه، وجعله مذهباً رسمياً للدولة، معززاً ذلك بقوله: "نحن أحقّ باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه الموطأ"⁸، ثمّ تعزّز المذهب المالكي في المغرب بوفود نخبة من العلماء الذين وصلوا إلى المشرق، وعادوا يعلمون الناس⁹.

وهذا يشير إلى أنّ العامل السياسي له دور فعّال في نشر المذهب المالكي في المغرب، وفي ذلك يقول ابن حزم: "مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإنّ يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاضي في أقطار بلاد الأندلس إلاّ بمشورته واختياره"¹⁰.

وقد أرسى الإمام إدريس أصول المذهب المالكي في المغرب الأقصى، بإسناد منصب القضاء الأوّل لشخصية عربية هي: عامر بن محمد بن سعيد القيسي، تلميذ الإمام مالك¹¹، الذي سمع منه، وروى عنه كثيراً، ولما قدم المغرب سمع منه إدريس وغيره من الفقهاء ما رواه "مالك"، فكان "عامر" بذلك أوّل من أدخل الموطأ إلى المغرب الأقصى¹².

وبدخول الموطأ إلى المغرب تحوّل المغاربة من المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي إذ لم يكد القرن الرابع يطلّ، حتى كان المذهب المالكي قد بدأ ينتشر في المغرب الأقصى، وتتجذر أصوله، وفروعه في سائر مرافق الحياة¹³.

فقد كان للمولى إدريس الثاني أثر كبير في نشر المذهب المالكي بالمغرب حيث جعله مذهباً رسمياً للدولة، وأصدر أمره لولائه وقضاته بذلك، وعلى رأسهم القاضي عامر القيسي المذكور آنفاً ثم لما بُني جامع القرويين سنة 245 هـ كان مركز إشعاع علمي وثقافي قوي، وكان له الفضل في خدمة المذهب المالكي وترسيخه في ربوع المغرب بما خرج من علماء أكفاء أقوياء، لهم باع طويل في فقه المذهب المالكي وأصوله وقواعده وأقوال أئمتته ومرويات إمامه واستنباطاته واجتهاداته الفقهية المنقولة¹⁴.

فقد استطاع المولى إدريس بفضل الله تعالى ومعونته، أن يوحد الناس على مذهب واحد، ويقضي على التفرقة المذهبية التي كانت سائدة آنذاك، خاصة مع وجود كتاب الموطأ لإمام المدينة، أصل المذهب ولبّه، إذ اجتمع المغاربة عليه، فجعلوه حكّمهم ويفصلهم والمرجع في كلّ أمورهم، فلم يتعدّوه إلى غيره.

فالمذهب المالكي لم يدخل المغرب "كمذهب فقهي فحسب، بل كمكوّن لهوية المغرب الدينية والوطنية، وقد تأهل بذلك ليشكل أتباعه تياراً في العمق عمل خلال قرنين ونصف قرن على صياغة ملامح المغرب في تطوره اللاحق"¹⁵.

وبذلك شكّلت المدرسة المالكية على عهد إدريس الثاني المنهج الأمثل والأفضل عند المغاربة لفهم الإسلام وتطبيقه، حتى أصبح لها الأثر الكبير على سلوك الإنسان المغربي بجميع أبعاده الفردية والجماعية، فضلاً عن أنّ فقهاء المالكية قد عملوا على سد أبواب الفتن والحفاظ على الوحدة الوطنية لقرون عديدة.

هذا، وقد تعزّز المذهب المالكي في المغرب على أيدي العلماء الذين ارتحلوا لطلب العلم ومن هؤلاء:

1- دراس بن إسماعيل¹⁶، الذي يعود الفضل إليه في تأسيس مدرسة "فاس" في أوائل القرن الرابع الهجري¹⁷ إذ يعدّ أول من أدخل "المدونة" وبواسطته انتشر المذهب في المغرب وذاع¹⁸، وإذا كان الباحثون يعدّون "الموطأ" أول كتاب حديثي دخل المغرب - فإنهم يعدّون المدونة أول كتاب فقهي دخل إليه، وعلى هذا اعتبر دراس بن إسماعيل أول من أدخل فقه الإمام مالك إلى المغرب الأقصى¹⁹.

2- عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز، كان له في المغرب رياسة العلم، وإليه كانت تدول الفتيا، ورحل إلى الأندلس، وإفريقية (تونس)، ولازم ابن أبي زيد، واختص به، وسمع منه كتب النوادر والمختصر، وجاء بهما وبغيرهما إلى سبتة، وسمع منه دراس بن إسماعيل، توفي سنة 413 هـ²⁰.

3- ابن معيشة (الكتاني): القاضي أبو محمد عبد الحق الكتاني الغرناطي، أحد رؤساء جامع القرويين على عهد المرابطين، كان يحتفظ بأربع خطط: فقيه، مشاور، إمام، قاض، ويذكر التاريخ أنه كان على رأس علماء القرويين الذين حضروا مجالس المهدي بن تومرت في مسجد الطالعة، توفي سنة 533 هـ²¹.

4- ابن غازي: أبو عبد الله بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي، شيخ الجماعة في فاس، انتهت إليه رواية السنة بإفريقيا الشمالية، له: شفاء الغليل

لشرح مختصر خليل، وتكميل التقييد على المدونة، وحل مشكلات ابن عرفة، وسواها، توفي سنة 919 هـ.²²

5- قاضي الجماعة أبي عبد الله: محمد بن أحمد بن بكر القرشي، قاضي الجماعة بفاس، كان نسيج وحده في المتأخرين، ألف كتابا اشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة، وتوفي سنة 759 هـ.²³

وفي سنة 192 هـ أسس الإمام إدريس بن إدريس "مدينة" فاس، وجعلها عاصمة سياسية ومركزا دينيا، وقد ضمت المدينة من قدموا عليه من الأندلس، ومن قدموا عليه من القيروان، فكانت تشمل عدوة الأندلس وعدوة القرويين، وعندما نتحدث عن فاس فإنّ الحديث عنها يرتبط بشيئين ارتباطاً دائماً، ألا وهما: الجامع، والجامعة، وأعني جامع القرويين، وجامعة القرويين، ففيهما بدأ التعليم للفقهاء المالكيين في المغرب الأقصى، وتطوّر وتجدّر في تلك الديار.²⁴

ومن المعلوم أنّ المسجد كان مركزا للتعليم منذ فجر الإسلام، ونستطيع القول: أنّ مسجد "المدينة" كان أول معاهد التعليم في المشرق، تبعه جامع البصرة، والكوفة، والفسطاط، ثم جامع الزيتونة بتونس سنة 116 هـ، وبعده جامع القرويين في المغرب الأقصى سنة 245 هـ، ثم الجامع الأزهر في مصر سنة 359 هـ.²⁵

أمّا جامعة "القرويين": فإنّ للقيروان في تونس الفضل الأول في تكوين جامعة "فاس" وكانت لها بمثابة الفرع من الشجرة²⁶، لكن "القيروان" لم تلبث أن تعثرت عثرتها الكبرى في القرن الخامس الهجري، بتغلب قبائل بني هلال القادمة من الشرق، فأصبحت أثرا بعد عين، ولم يكن حظ "الزيتونة" بأحسن حالاً، فبعد السنين الزاهرة التي عرفها

الجامع والتي جمعت مرارا وتكرارا بين علماء فاس وعلماء تونس، فإنّ الإسبان لم يلبثوا أن قطعوا سيرا أواسط القرن العاشر²⁷. كما كان للتدخل العثماني أيضا أثر في "تتركب" التعليم بالجامع الأعظم²⁸.

كما تعزّز مركز القرويين بالتفاف مدرسة قرطبة والقيروان حول فاس إذ هاجرت أربعمئة أسرة قيروانية منهم "آل الفهري" وثمانية (أو ثمانمئة في رواية أخرى) من قرطبة، وكان ذلك بزعامة رجل بربري من طنجة من قبيلة "نقرة" وهو: "يحيى بن يحيى الليثي" المتوفى سنة 234 هـ، وكان قد سمع الموطن من مالك²⁹.

و بهذا اجتمع في فاس علم القيروان وقرطبة، إذ كانت القيروان حاضرة الغرب، وقرطبة حاضرة الأندلس، فلما اضطرب أمر إفريقية (تونس) بعثت العرب، واضطرب أمر قرطبة آخر ممالك بني أمية، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء، فرارا من الفتنة، فترل أكثرهم إلى مدينة فاس، وأصبحت بذلك موثلاً للعلم والعلماء³⁰.

وهكذا امتدت شجرة الفقه المالكي من المدينة إلى بغداد، إلى القيروان، إلى قرطبة ففاس مؤكّدة المقولة المأثورة: "العلم كتمح نتج بالمدينة، وصقّي ببغداد، وطحن بالقيروان، وغربل بقرطبة، وأكل بفاس"³¹.

المبحث الثاني: تطوّر المدرسة المالكية في المغرب الأقصى

بدأ تطوّر مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، وتعزز نفوذ المذهب بقيام الدولة المرابطية في القرن الخامس خاصة في زمن الأمير: علي بن يوسف بن تاشفين الذي عرف عنه اهتمامه بأهل الفقه، ومشاورته للفقهاء، وكان يشترط على القاضي عند توليته ألا يقضي إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فعظم أمر الفقهاء في أيامه، وأقبل الناس إليهم، ولم يكن الأمير يقرب منه إلا من علّم علّم فروع مذهب مالك، فنفتت كتب المذهب للإقبال عليها، والعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها، حتى أهمل النظر في الكتاب والسنة من

مشاهير فقهاء ذلك الزمان، وترتب على كل ذلك امتداد نفوذ المذهب، وازدهاره³² حيث توسّع المذهب المالكي باتجاه جنوب المغرب نحو الصحراء، التي انبثقت منها الدولة المرابطية، بدافع من "واجاج بن زلو" الذي اختار "عبد الله بن ياسين" بإيعاز من: أبي عمران الفاسي إمام المذهب المالكي في تونس³³.

ولا يخفى أنّ العالم: ميمون الصحرابي المتوفى سنة 506 هـ، وقيل: سنة 530 هـ، هو شيخ القاضي عياض³⁴، إمام المذهب المالكي في المغرب، وصاحب كتاب ترتيب المدارك، وقد نوّه بانتشار المذهب آنذاك في المغرب الأقصى والصحراء وبلاد من أسلم من السودان³⁵.

وقد كان اهتمام أهل الصحراء الغربية بمذهب الإمام مالك شديداً حيث ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجين أن أهل (دغوغ) الذين انتشروا في المغرب وصحرائه كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب (7660) رجلاً و (500) من النساء³⁶.

وبسقوط الدولة المرابطية، واستيلاء الدولة الموحدية، مرّ المذهب المالكي بفترة عصيبة، حيث ضيّق على فقهاء المالكية، وعارضوا مذهبهم معارضة صريحة، بل أحرقوا كتبهم، ومنها: "مدونة سحنون". وخاصة في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن حيث طلب من الناس ترك الاشتغال بعلم الرأي، وتوعد على ذلك بالعقوبة، بل أوقع الحن بدوي الفروع، وقتلهم، وضرهم بالسياط، وألزمهم بالأيمان المغلظة من عتق، وطلاق، على أن لا يتمسكوا بشيء من كتب الفقه، وكان قصده -في الجملة- محو مذهب مالك وإزالته من المغرب، وحمل الناس على الظاهر من القرآن³⁷.

غير أنّ هذه المحنة التي لحقت بأتباع المذهب المالكي لم تطل، فبزوال الدولة الموحدية، ومجيء الدولة "المرينية"، عاد النفوذ للمذهب المالكي مرة أخرى، وما زال³⁸.

فقد استطاع "بنو مرين" بسرعة أن يسترجعوا ما ضاع، وأن يبعثوا ما فقد من كتب المالكية، وفي صدرها كتاب "المدونة" التي نسخها فقهاء فاس من حفظ الفقيه: "أبي الحسن علي بن عشرين"³⁹.

ومما ساعد على تطوّر الفقه المالكي في المغرب الأقصى: اهتمامهم بالخزائن العلمية، والكراسي العلمية. فقد عرفت "القرويين" نوعاً من الجامعات الأكاديمية، تجلت في هذه المكتبات العلمية العديدة، وقد عرف عن أهل فاس أنهم يتبارون في اقتناء الكتب وانتساخها، فهذا العالم: "يحيى الرابع" المتوفى سنة 3070 هـ يقول فيه "البكري" إنه كان يتوفّر على عدد من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب"⁴⁰.

وكان أبرز ما يشير انتباه المتتبع لظهور الخزائن العلمية هذا العدد من العلماء الذين أخذوا يتوفرون على مكتبات عظيمة، ووصل العلم بذلك إلى مجالس علماء الشرق، فهذه مكتبة بني الغريديس التغلييين لصاحبها قاضي فاس، وناظر جامع القرويين: "أبي عبد الله محمد الغريديسي التغليي"⁴¹.

وهذه مكتبة القاضي أبي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم بفاس، التي كونها من مكتبة والده، ومكتبة عيسى الأزدي الزهراني، ومكتبة المؤلف: عبد الرحمن بن الملجوم حيث صارت أكبر مكتبة في المغرب في ذلك العهد⁴².

ولا تزال خزانة القرويين الكبرى في فاس تحتفظ إلى اليوم بنسخة من كتاب الزهد والرفائق لابن المبارك وقد كتب سنة (465 هـ)، وكتاب الناسخ والمنسوخ لأبي بكر بن العربي عليها خط الحافظ: ابن مفلوذج سنة (481 هـ)، واختصار الموطأ: للمهدي بن تومرت، وفي أوله سند عبد المؤمن بن علي بن المهدي إلى الإمام مالك، هذا إلى بقية من نسخة الموطأ في عدة أجزاء من رق الغزال، وكان نسخها في شعبان من سنة 502 هـ⁴³.

أمّا الكراسي العلمية: فقد استعملها علماء القرويين منذ وقت مبكر للاستعانة بها على تلقين طلبتهم، ولا سيما حين يكثر عددهم، وقد عرف عن بعض مجالس العلم بجامع القرويين ما كان يناهز عدد الحضور فيها آلافاً من الناس، فكان ضرورياً أن يتخذ الفقيه له كرسيًا لإسماع كل هذا العدد⁴⁴.

وهكذا ظهر المذهب المالكي في المغرب الأقصى، واستمر على انتشاره الباهر، ونمّوه الزاهر إلى يومنا الحاضر، وبقيت جامعة القرويين منارة للعلم، ليس للمغرب فحسب، بل لمختلف بلاد المسلمين في تلك الجهات وغيرها.

وقد تخرّج من هذه المدرسة علماء أجلاء، كان لهم الدور الفاعل في خدمة الفقه المالكي تعاقبوا جيلاً بعد جيل، ولم يتوقف عطاؤهم منذ احتضان المغرب لهذا المذهب الأصيل⁴⁵.

بهذا اختار المغرب الأقصى المذهب المالكي مذهباً فقهياً، وخدم علماؤه المذهب خدمة عظيمة، وتصدّوا للبحث والتأليف في كل ما يتعلّق بأصول المذهب وأحكامه، وكان لمؤلّفاتهم دور كبير في تعزيز المذهب المالكي.

وهكذا قام المغرب بدوره في خدمة الفقه المالكي، من خلال تخريج العلماء منذ تأسيس جامع القرويين سنة 245 هـ، وحتى عصرنا الحاضر.

واستمرت رعاية سلاطين المغرب للمذهب المالكي من خلال رعاية جامعة القرويين، ومما يؤكّد حرص سلاطين المغرب الأقصى على المذهب المالكي، وحثّ الأمة على التشبث به، رعايتهم المستمرة للقرويين، مع ما تمثله من مركز إشعاع للفقه المالكي. فالملك محمد الخامس بقي طوال فترة حكمه (34 سنة) يعطي القرويين - بعلمائها وطلابها - كلّ العناية يرددها في خطبه، ويدافع عنها في مجالسه، ولما عاد من منفاه

صعد منبرها التاريخي، وخطب الناس، فكان بذلك ثاني ملك يرتقي المنبر للخطبة في المغرب بعد الإمام إدريس بن إدريس⁴⁶.

ويتجلى أثر مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي من خلال خدمة علمائه لأمّهات الفقه المالكي، ومن خلال مصنفاتهم في مختلف مجالات الفقه شروحًا، وتعليقًا، وتقاييد⁴⁷.

ولقد استمر تأثير المغرب الأقصى من خلال علمائه أو الطلاب الذي يفدون إليه منذ تأسيس جامعة القرويين إلى الآن في العمل على انتشار المذهب المالكي في إفريقيا وفي أوروبا من خلال الجاليات المغربية التي تتجه للعمل فيها، ولا بد من التنويه هنا إلى أنّ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تنظم في كل عام إرسال دعاة وعلماء إلى مختلف البلاد الأوروبية، وكامتداد لرسالة القرويين أنشئت عام 1383هـ "دار الحديث الحسنية" للدراسات الإسلامية العليا في العلوم الإسلامية والحديث، وتحظى برعاية كاملة من القصر الملكي المغربي، ويقوم على التدريس فيها صفوة علماء المغرب وعلماء من بلاد إسلامية أخرى⁴⁸.

وهكذا يظهر لنا جليًا تأثير مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، وجهد علمائه في ترسيخ هذا المذهب الأصيل في تلك الديار، غير أنّ هاته المدرسة بقيت تمثل الامتداد الطبيعي للمدرسة الأولى في المدينة المنورة، تسترشد بأصولها، وقواعدها.

وعليه، فقد حسم مذهب الإمام مالك بن أنس كلّ خلاف وأمّ الفقه في المغرب الأقصى، حيث مدّ جذوره أفقيا وعموديا في بلاد المغرب والأندلس منذ زمن بعيد، ودون غيره من باقي المذاهب التي لم تستطع الصمود أمامه رغم فرضها في فترات سياسية معينة، وتعود أسباب هذا الانتشار إلى عوامل كثيرة، أهمّها ملاءمة المالكية لطبيعة أهل

المغرب الذين تشبّعوا بفقهِه مالك أثناء رحلاتهم إلى الحجاز، بالإضافة إلى تبني إدريس الأكبر لهذا المذهب الذي عرف بالوسطية والاعتدال.

كما ظلّ أهل المغرب الأقصى ملتزمين بهذا المذهب على مستوى الحكم، فأضحى مذهبهم الرسمي منذ عهد الأدارسة إلى يومنا هذا، يلزم به الأمراء والسلاطين الخاصة والعامة، ممّا يدل على أصالة هذا المذهب، وقدرته على التكيّف والاستمرارية.

الخاتمة:

بدأ المذهب المالكي بالبروز والتطور على يد تلاميذ الإمام مالك، وبعد ذلك بدأ الانتشار في الكثير من المناطق بدليل قول المنصور (أنت والله أعلم الناس وأعقلهم، لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثنّ به إلى الآفاق فأحملهم عليه). بدأ بمرحلة التوسع بعد ذلك في مناطق من شبه الجزيرة العربية، وخاصةً في المدينة المنورة، ومنطقة الحجاز، كما أنّه وصل إلى الجزء الشمالي من قارة إفريقيا. بدأت دولة المرابطين الواقعة في منطقة المغرب الأقصى بنشر كتب تحمل آراء الإمام مالك، الأمر الذي أسهم في التوسع بالمذهب، وترسيخ مبادئه، وقواعده. ومن خلال ما تطرقتنا إليه في هذا البحث حول نشأة مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي وتطورها نخلص إلى النتائج الآتية:

1- كان للرحلات والأسفار الحجازية للمغاربة أثر كبير في نقل المذهب المالكي إلى المغرب.

2- بدأت نشأة مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي بدخول موطأ الإمام مالك إلى المغرب وتطوّرت بتأسيس جامع القرويين وجامعة القرويين، واستمرت بالتجذر والانتشار دون انقطاع.

- 3- تعتبر مدرسة الفقه المالكي في المغرب الأقصى امتداداً لشجرة المذهب المالكي التي نبتت في المدينة المنورة، وامتدت فروعها إلى بغداد، فمصر، فالقيران، فالأندلس، ففاس.
- 4- عناية سلاطين وملوك المغرب الأقصى بالمذهب المالكي ساهم بدور فعال في ترسيخه ونشره والعمل به في مرافق الحياة العامة كالقضاء والفتوى.
- 5- اختيار المغاربة لمذهب مالك في الفقه الإسلامي، وتشبثهم به عبر العصور، من الثوابت التي حافظت على وحدة البلاد و العباد.
- 6- وإن كان من توصية، فإنّ الدراسة تدعو الباحثين إلى توجيه الدراسات العلمية وتعميقها في مجال الجمع والتوثيق ورصد المعلومات والبيانات والاحصاءات عن المذهب المالكي في المغرب، وكذلك تعزيز دور مراكز البحوث والدراسات في مجال تحقيق المخطوطات من أجل الاستفادة من الثروة الفقهية والتاريخية للمدرسة المالكية في المغرب الأقصى.

الحواشي:

- ¹ - تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2: 1408هـ-1988م، ص 568.
- ² - تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص568.
- ³ - تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ص 568.
- ⁴ - نشأة المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس، إبراهيم القادري بوتشيش، ص03.
- ⁵ - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب- الدار البيضاء، ج1، ص194.

⁶ - مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي ومظاهر استمداها من المدرسة الأولى، مصطفى أحمد علي القضاة، ص 4. نقلا عن: الأزهار العاطرة، محمد بن جعفر الكتاني، مخطوطة بالخزانة العامة في الرباط، رقم 3354، ص130.

⁷ - مؤسس دولة الأدارسة "إدريس بن عبد الله الحسن" نجا من معركة (فخ) بين مكة والمدينة، التي جرب بين العباسيين والعلويين (169هـ - 170 هـ) وفرّ إلى مصر، ومنها إلى المغرب، ونزل في بلدة "وليلي" من أعمال مدينة طنجة في شمال المغرب سنة 172 هـ، وبايعته قبائل البربر بعد أن عرفوا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم. (ينظر: الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، صالح محمد فياض، 171-172. موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد الشلبي، 209/3).

⁸ - التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية)، عبد الحفي الكتاني، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط2، ج1، ص 82.

⁹ - انتشار المذهب المالكي ودخوله إلى المغرب ، موقع مغرس: <https://www.maghress.com/attajdid/6363>

¹⁰ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد المقرئ، تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان ص. ب 10، ط1: 1997م، ج2، ص10.

¹¹ - جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن القاضي المكناسي، طبعة فاس 1309هـ، ص13.

¹² - الاستقصا، الناصري، ص163.

¹³ - مدرسة المغرب الأقصى، أحمد علي القضاة، ص05.

¹⁴ - دور قوافل الحجيج في نشر المذهب المالكي في افريقيا، مصطفى البكري الطيب الشيخ الهادي، ص05.

¹⁵ - التزام المغاربة بالمذهب المالكي ووفائهم لأصوله، أحمد التوفيق، سلسلة الدروس الحسنية (1)،

1430هـ، ص: 10.

- ¹⁶ - أبو ميمونة: دراس بن إسماعيل الفاسي: وهو أول من أدخل "المدونة" إلى المغرب الأقصى، وكانت إليه الرحلة بالمغرب في وقته، وعليه مدار الفتيا، سمع من شيوخ الأندلس، ومن ابن اللباد بإفريقية (تونس)، ومن ابن أبي مطر بالإسكندرية، وسمع منه كتاب ابن المواز: ابن أبي زيد القيرواني، كما روى عن أقوام من أهل الأندلس وسبته، توفي سنة 357 هـ. (ينظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض: 81/6. الديباج المذهب لابن فرحون: 200).
- ¹⁷ - أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاضل بن عاشور، مطبعة النجاح، تونس، ص36.
- ¹⁸ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد الحجوي، ط1، 1995م، ص 111.
- ¹⁹ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكبتها، بيروت، ص451.
- ²⁰ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، تح: محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ج2، ص04.
- ²¹ - جامع القرويين، عبد الهادي التازي، 1972، بيروت، ج1، ص 162.
- ²² - شجرو النور الزكية، محمد مخلوف، ص398.
- ²³ - الديباج المذهب، ابن فرحون، ج2، ص264-265.
- ²⁴ - جامع القرويين، التازي، ج1، ص 56.
- ²⁵ - جامع القرويين، التازي، ج1، ص 113.
- ²⁶ - جامع القرويين، التازي، ج1، ص 113.
- ²⁷ - جامع القرويين، التازي، ج1، ص 133.
- ²⁸ - جامع القرويين، التازي، ج1، ص 133.
- ²⁹ - الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه، عبد العزيز بن عبد الله، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد الثاني، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1981م، ص 132.
- ³⁰ - شجرو النور الزكية، محمد مخلوف، ص 451.

- 31 - جامع القرويين، التازي، ج1، ص109.
- 32 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الوهاب المراكشي، تح: علي زينهم، ص149-151.
- 33 - الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه، عبد العزيز بن عبد الله، ص234.
- 34 - الإعلام في تاريخ مدينة مراكش، العباس بن إبراهيم، ج7، ص237.
- 35 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، تح: بن تاويت الطنجي، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط1، ج1، ص65.
- 36 - المعسول، محمد المختار السوسي، الدار البيضاء، المغرب، 1960م، ج4، ص09.
- 37 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الوهاب المراكشي، ص321.
- 38 - الفكر السامي، الحجوي، ج3، ص173.
- 39 - مدرسة المغرب الأقصى، أحمد علي القضاة، ص8. نقلا عن: المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية، عبد الهادي التازي، ندوة الإمام مالك، ج1، ص94.
- 40 - جامع القرويين، التازي، ج1، ص123.
- 41 - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقرئ، تح: مصطفى السقا- إبراهيم الأبياري- عبد العظيم شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1358 هـ - 1939 م، ج1، ص24.
- 42 - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، علي بن أبي زرع الفاسي، طبعة دار المنصور - الرباط، 1972م، ص42.
- 43 - الأنيس المطرب، ابن أبي زرع، ص28.
- 44 - جامع القرويين، التازي، ج1، ص125.
- 45 - مدرسة المغرب الأقصى، أحمد علي القضاة، ص9-10.
- 46 - جامع القرويين، التازي، ج3، ص823.
- 47 - الجذور الأولى للمذهب المالكي في المغرب، عمر الجيدي، مجلة دعوة الحق، العدد: 273، 1989م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب، ص181-182.

⁴⁸ - مدرسة المغرب الأقصى، أحمد علي القضاة، ص 30.